المعلّقة

يقول صاحب الشعر والشعراء (ابن قتيبة): إن عنترة لم يكن ينظم القصائد الطِّوال، ولكنه كان يكتفي بالبيتين والثلاثة حتى عابه أحد بني عبس بذلك، وذكر له سواد أُمّه وإخوته، واستثار بذلك عنترة، فاندفع يفتخر على صاحبه قائلاً:

«والله إن الناس ليترافدون بالطعمة، فما حضرت مرفد الناس أنت ولا أبوك ولا جدّك قطّ. وإنّ الناس ليدعون في الغارات، فيعرفون بنسوبهم، فما رأيناك في خيلٍ مغيرة في أوائل الناس قطّ. وإن اللُّبس ليكون بيننا، فما حضرت أنت ولا أبوك ولا جدّك خطة فيصل، وإنما أنت فقع ابن بقرقر، وإني لأحضر البأس، وأوفي المغنم، وأعفّ عن المسألة، وأجُود بما ملكت يدي، وأفضل الخطة الصماء. وأما الشعر، فستعلم».

فكان أوّل ما قال قصيدة:

obeikandl.com

هل غادر الشعراء من متردّم

أم هل عرفت الدار بعد توهّم

وفي رواية أخرى أنّه قال:

«إني لأحضر البأس وأوفى المغنم، وأعفّ عند المسألة، وأجود بما ملكت يدي، وأفضل الخطة الصماء».

وعندما أنشد عنترة معلّقته هذه في مجلسه، إنما كان ينثر الشعر كما تنثر الزّهرة الفوّاحة العبير، وكانت تستحوذ على روح القصيدة فكرتان رئيسيتان، أولاهما: الجهاد في سبيل كسب حبّ عبلة. والثانية: الصراع من أجل الخير، وتجسيد المثل العليا في ذلك الصراع.

وكانت حروبه التي برزت في المعلّقة إنما من أجل عبلة، وأصبح يتغنّى بمزايا الإنسان وما في جوانحه من رغبة في الحبّ، ونبل في الأخلاقيات التي تجعل المحبوب راضياً عن حبيبه.

وكما نرى، فإنّ عنترة كان يعشق عبلة، وكان يرى في ذلك حياته كلّ حياته، بل كان ينسى في ذلك الكثير من شقاء العبودية الماضية، وعذاب الكلمات الممضة في حاضره. ويُبصر في الحب حرية يتنسّم هواءها كلما نظر إلى جمال عبلة، وكان هذا الحبّ

يسيطر عليه في سلمه وحربه، وكان إعجابها به ضرورةً من ضرورات حياته؛ لأن رضا عبلة هو الحياة كلها، ولا معنى للحياة بدون رضاها. وكان كلّ شيء تقع عليه عيناه يمثل له جمالاً من جمال عبلة، فالسيوف إذا لمعت لا تعني القضاء على الحياة، بل تعني أضواء من ابتسامات عبلة المشرقة تضفي عليه لوناً جديداً من معاني الحياة، وتصبح الصوارم القاطعة أداة إشراق للحياة تثير فيها هواجس الحبّ ونوازع البقاء من أجل حبّ عبلة:

ولقد ذكرتك والرماح نواهل
منى وبيضُ الهند تقطر من دمي
فوَدِدْتُ تقبيلَ السيوف لأنها
لمعت كبارق ثغرك المتبسّم

ليست هذه الكلمات من قبيل المبالغة، ولكنها تركيز لفكرة الحب المسيطر على عنترة. وربما لم يكن هناك شاعر تأثر بديناميكية الحبّ كما تأثر عنترة، فقد غلفه الحبّ من كل جهة، وأحاط به من كل الجوانب، وانحصرت مخيّلته في ذلك الإطار حتى أصبحت السيوف اللامعة وغيرها كلّها إرهاصات وأصداء لذلك الحبّ. ونجد أنّ أثر الحب في حياته وشعره قويًا لا يضعف بذكر الخيالات المتحرّكة المتتالية، مهما تعدّدت

وتراكمت على بعضها بعضاً، كما نرى ذلك في حديثه الذي بدأه بالكلام عن عطر عبلة، وانتهى به إلى وصف الذباب والمكِبِّ على الزناد.

والمعلّقة مثل غيرها من المعلّقات تحمل بين طيّاتها مواضيع مختلفة في ظاهرها، إلاّ أنها في الحقيقة مشدودة بأمراس كتان إلى الموضوعين المحبّبين إلى قلبه: الحبّ والحرب، وهذان الموضوعان هما اللذان أثارا عنترة حين تحدّث إليه العبسي وافتخر عليه، فإذا بعنترة يردّ ردًّا قويًا بأنه هو الذي يحارب من أجل الآخرين، ويوضح له محاسن أخلاقه والبواعث التي جعلته يتحلّى بتلك الأخلاق، وما تلك البواعث إلاّ عبلة وما يتعلق بحُسْن سمعته التي يريد أن تنتشر بين الناس بكلّ روعتها ومحاسنها. وهكذا يتغنّى عنترة بعواطف إنسانية كانت جديدة على أهل زمانه. وانفرد بتلك العواطف والمُثُل، فخرجت شخصيته فريدة لا تشبه في قليلٍ أو كثير الشخصيات الجاهلية الشاعرية الأخرى، فهو لا يرتاد الحانات ويفخر بها كما يفعل طرفة وامرؤ القيس والأعشى وعمرو بن هند. ولا يتحدّث عن السِّلم الذي تحدّث عنه زهير، بل إنه في الوقت الذي كان يتحدّث فيه زهير عن السلام والمصالحة، كان عنترة يتوق إلى الحرب والنِّزال، والضرب والقتال؛ لأنه بدون

ذلك لن يكون له شأن في حياة السّلم والدّعة. إنه بطل الحروب ولا مكان لأمثاله في السلم، ولو جنح الناس إليها لأصبح ذكره خاملاً غير مرموق. ومن هنا كان يخشى ألاّ يزداد عدد الذين قتلهم، ويخاف أن تصيبه الحسرة، فقال:

ولقد خشيتُ بأن أموت ولم تَدُرْ
للحرب دائرةٌ على ابنَيْ ضَمْضَم
الشاتِمَيْ عرضي ولم أشتَمهما
والناذرين إذا لم القَهما دمي
إن يفعلا فلقد تركت أباهما
جَزَرَ السباع وكلِّ نسر قشعم

ما الذي جعل عنترة يذكر ابني ضمضم في معلّقته دون غيرهم من الأبطال؟ هل يا ترى كان عنترة يهتمّ كل هذا الاهتمام بعِرضه، فلا يسمح لأحد بأن يناله، وهل بلغت عفّته وعفّة لسانه هذه الدرجة من السموّ بحيث يأبى على نفسه أن ينال من عرضهما، وهو الشاعر اللّسن الذي كان في إمكانه أن ينشىء القصائد في سبّهما؟ إن عنترة يوضح هنا أنه عفيف اللّسان لا يهاتر، كما أنه يعجبني فيه هذا التواضع الطريف حين لا يستبعد أن يقتله أبناء ضمضم ويشعر بأنه قد انتقم لنفسه

حين قتل أباهما، وهو يعرف بأنّ كل شيء مُمكن حتى هو عرضة لأن يقتله أبناء ضمضم.

كان عنترة مقداماً في حروبه، وكان يلجأ إليه أقرانه لكي يقود المعركة، وكانوا يرون فيه رمز النصر وتباشير الانتصار. وكان يعرف فيهم هذا الشعور، ولذلك فإنّه لم يكن يتوانى في التقدّم أمامهم، بل إنه كان يعمد إلى فتح الثغرات في صفوف أعدائه برمحه وفرسه وشجاعته حتى يرتفع روح أصحابه المعنوي، وعند ذلك يرون في أنفسهم أنهم عناتر أيضاً! أما هو، ففي حالة استعداد دائم للحرب لأنه خلق لذلك:

إذ لا أزال على رحالة سابح
نَهْدٍ تعاوره الكماة مُكَلَّم
طوراً يُجَرَّدُ للطعان وتارة
يأوِي إلى حَصد القِسِيّ عَرَمْرَم
في حومة الموت التي لا تشتكي
غمراتِها الأبطال غير تَغَمْغُم
إذ يتقون بِيَ الأسِنّة لم أخِمْ
عنها ولكني تضايق مقدمي

لا يجد قارىء لشعر الحرب مثل هذا الصدق في التعبير عن النفس المحاربة وتصوير الحرب والمواقع.

ومن الواضح هذه الرّوعة التي نجدها في حالة عنترة المعنوية والحسّية، فأقرانه يقفون وراءه خشية أن تُصيبهم أسِنّة رماح قاتلة، إلا أن عنترة لم يخف منها، بل إنه أراد أن يخترق الصفوف التي أقامها أعداؤه سدًا منيعاً واعترف بقوّة هذا السدّ. فقال بأنه لم يفلح في اختراقه، مما أدّى إلى بعض المضايقة في تحقيق تقدّمه.

فتجربة عنترة في الحرب تجربة حيّة يبرز فيها دور كل مَنْ يشترك فيها؛ فالأبطال الذين زنبتهم الحرب وجاؤوا لكي يصطلوا بنارها كانوا يعرفون مقدماً شدّتها، وأن المرء مهما كان شجاعاً لا بدّ له من أن يذوق منها الأمرّين. ومع صليل السيوف وقعقعة الرماح نستمع إلى هؤلاء الأبطال، وهم يغمغمون بأصواتٍ غير واضحة المعالم، وما تلك الغمغمة إلا شكواهم التي يصدرونها من أفئدتهم كلّما حمي الوطيس.

وبرع عنترة في إبراز شجاعة جواده الذي يخترق به الصفوف، فهو كما نعلم يقتحم به مناطق العدوّ بالرغم من الأسِنّة المشروعة إلى صدره والتي تشرب من دمائه كما تنهل الدِّلاء المشدودة بالحبال من البئر، وهذا تصوير فني رائع جمع بين الاستقامة في الرماح واستقامة حبال الدّلاء كما جمع بين النهل من دماء الفرس وماء البئر.

يدعون عنترة والرماح كأنها

أشطان بئر في لَبان الأدهم

ثم ما لبث عنترة أن أضاف صوراً أُخر لما يجشم جواده من أهوال ومشاق؛ لأن هذا الجواد سرعان ما يركب مركباً خشناً، ونحن ننظر إليه وترتاع نفوسنا من منظر القسيّ العرمرم المنصبة على صدره، وإن ما يذهلنا حقًّا أكثر من أيّ شيءٍ آخر أنّ هذا الجواد الضخم لا خيار له غير أمرين: إما أن يمضي إلى حيث الطِّعان بالأسِنّة، أو حيث الرمي بالسِّهام الغزيرة، وفي كِلاَ الحالين يذوق الجواد ألم الطَّعن والجراح.

هذا الجواد القوي الشجاع لا يُضاهيه في شجاعته وإقدامه إلاّ صاحبه عنترة، ذلك المقدام في حومة الوَغَى؛ فهو يمشي في مقدمة الأبطال لمصادمة أعدائه. ولكنه في الإغارة على محبوبته لا يجسر على القيام بعملٍ واضح كما يفعل في الحرب؛ لأن احترامه للمرأة يجعل علاقته الودِّية بها سرية بقدر الإمكان، ويخشى عليها من القيل والقال؛ لأنه لا يريد أن يأخذها سبية أو عنوة، فتكون عنده بمثابة الجارية أو المحظية. ولكنه يريدها لنفسه، وهي في مكانتها السامية مع قليلٍ من المغامرة الغرامية التي تتعشّقها النفس وتتلهّف عليها من

توقّع وانتظار ووفاء بالوعود. إنّ الاستحواذ على المحبوبة بشيءٍ من التعب والخوف والمراوغة من جانب الرجل، والرغبة في اللّقاء والتلبية للحبّ من جانب المرأة أحلى بكثير من الاستيلاء عليها عنوةً أو امتلاكها قسراً.

لذلك، فإن عنترة يرجع للحيل اللذيذة التي لا تخلو من إنسانية وواقعيّة. وإن حبيبته التي تشبه الظبي، والتي حرمت عليه لأسباب عدّة لا داعي لذكرها هي خير ما يسعى الفارس لاصطياده، ولكنها تسكن في الحيّ مع ذويها، فإذا أرادها لا بدّ له من أن يتلصّص للوصول إليها. ومن هنا، فإنه يبعث جاريته تتجسّس له أخبارها وتضرب له المواعيد معها.

يا شاةَ ما قنصٍ لمن حُلَّتْ له
حَرُمت عليَّ وليتها لم تحرم

فبعثتُ جاريتي وقلت لها اذهبي
فتجسّسي أخبارها لي واعلمي

قالت رأيتُ مِنَ الأعادي غرّة
والشاة ممكنة لمن هو مُرْتمي

إنه يريد من الجارية أن تستوثق من المكان المناسب والوقت المناسب أيضًا، حتى يذهب إليها

ليتمتّع بلهو قد يكون بريئاً، وقد لا يكون؛ فهو لا يخوض في ذلك، بل يتركنا حيث التقت الجارية بالمحبوبة، ولا نعلم مِنْ أمر اللّقاء المُرتقب شيئاً لأنه سرٌّ من أسرار عنترة لم يشأ أن يُعْلنه، كما كان يفعل امرؤ القيس مع الأُخريات. ولكن ممّا لا شكّ فيه أننا نعرف أنّ أسلوب عنترة في الحياة هو كما جاء على لسانه: «وكما علمتِ شمائلي وتكرّمي»، فهو ليس رجل فضائح! هذا حوارٌ طريف بين عنترة وجاريته خاصّة عندما قالت له الجارية: «والشاة ممكنة لمن هو مرتمي»، فهي تتحدّث في أسلوب بارع من التورية ما أشبهه ببنات جنسها.

وفي هذه المغامرة يحتفظ عنترة بأسلوبه المعهود في احترام المرأة أيًا كانت، وهو احترام نلمسه في علاقته بعبلة وبغيرها، بل وبجاراته وزوجة أبيه المسمّاة سميّة.

المرأة في رأي عنترة ليست أداة للذّة، بل إنها حافز على البطولات والمُثُل العليا، خاصة في المعلّقة. ومن ثمّ، فإنه إن ذكر المرأة في حديثه قرن ذلك بالحديث عن الحرب والفروسية. وهذه حبيبته التي أرْخَتْ قناعها كي تستتر منه لأنها لا تريد أن تراه ويراها، فيأسرها حبّه إذا رأته. ويلاحظ هو تلك

المحاولة من جانبها، وتجري مخيّلته إلى الأسر من حيث هو، ثم إلى أسر الأبطال فيخاطبها بأنها مهما حاولت أن تتمنع عليه خوفاً على قلبها، فإنها لن تفلح لأنه خبير بأسر الأبطال المتسربلين بدروعهم، المحافظين على مهجاتهم.

إن تُغْدِفي دوني القناعَ فإنّني
طَبٌّ بأخذِ الفارس المستلئم
أثني عليَّ بما علمتِ فإنّني
سهل مخالقتي إذا لم أُظْلَم
فإذا ظُلمتُ فإن ظلمي باسل
مُرّ مذاقته كطعم العلقم

ويمضي في حديثه بشيءٍ كثير من الظرف واللّطف ليقول لها بأنه سهلٌ في أخلاقه، يتحلّى بالرقّة والظرف إذا أعطته الفرصة الكاملة لتتعرّف على خِلاله الفاضلة. ثم يذكر بأنه إذا ظلم، فإنه سيرد بالمثل لأن ظلمه حرام، وهو حين يتحدّث عن الظلم، فإنه لا يعني ظلم المرأة له، بل إن ذهنه ينصرف إلى ظلم الإنسان وما في ذلك من تنغيص ومرارة.

يمعن عنترة في ذكر محاسنه ويطلب من عبلة أن تبحث وتجدّ في البحث بغرض معرفته معرفة وثيقة.

وكان لأحاديثه هذه فعل السِّحر في نفوس قرّاء معلّقته. ولا رَيْب في أن عبلة وجدت في ذلك متعة أيّة متعة، ولا شكّ في أنها كانت تتيه على بنات جنسها فخراً بما طوّقها به عنترة من حبٍّ واحترام وتقدير وغزل بكر لم تجد مثله أيّة حواء أخرى، سواء في العصر الجاهلي أم غيره من العصور. إنّ كل ما لقيته حبيبات الشعراء الآخرين لا يخلو من طلب لذّة، أو الوصول إلى تلك اللذّة ليتباهى بها الشاعر على أنه زير نساء، وأنه ناجح في مغامراته مع الجنس اللّطيف إلى حدّ المبالغة. بَيْد أنّ عنترة يحدّد أهدافه في الحبّ ويجعل من المرأة صنماً يتعبّده، ونبراساً يُنير له طريق الحرب والفروسية والأخلاق الفاضلة؛ فحبّ المرأة في نظره، وقوّة ذلك الحبّ تصوغ الحياة الإنسانية، وتعطيها شكلها الجذّاب الصحي، والرومانسية الخالدة خلود الحياة والشعور الفيّاض. إنّ عبلة امرأة حيّة تستثير فينا جميعاً النخوة العربية. أمّا فتيات امرىء القيس وأضرابه، فإنهنّ يُثِرْنَ فينا اللذائذ الحسّية التي مهما كانت حلاوتها، فإنّ تأثيرها سيخبو مع نهاية اللذّة. بينما إثارة عنترة التي يلقاها من عبلة تبثّ في نفوسنا جذوة الحبّ الدافئة الباقية لصعوبة منال الحسّيات منها، وتبثّ فينا الشعور والرغبة في إقامة أمجاد بطولية خالدة.

بينما كان الشعراء من أمثال امرىء القيس وطرفة والأعشى يلهون بالمرأة ويعبثون بها وبما تملك، كان عنترة جادًا في الحفاظ عليها بجهاده في الحروب، ونزاله ضدّ الفوارس وكرمه الفيّاض، سواء في المغانم أو غيرها وببذله النفس في سبيل إرضائها ونصرة القبيلة بأسرها. ولذلك، فإنّنا إنْ كنّا نتلذّذ بدعابات امرىء القيس مع الفتيات ونشاطره تلك الدعابات الخبيثة لما في نفوسنا من خبث، إلا أننا نكبر عنترة حين نخوض معه المعارك، ونجنّب المرأة الوقوع في حبائلنا وفي أسْر غيرنا، فنحن نقف معه لنجاهد حتى الرّمق الأخير من أجلها.

إنّ المعلّقة أطنبت في ذكر فضائل عنترة، وجاء بها صاحبها بطريقة مقنعة جعلتنا نؤمن بأنه كان يتحلّى بتلك الفضائل، ولا يمكن أن نتحدّث عنه دون أن نصفه بها. ويبدو لنا أنّ عنترة كان أميناً مخلصاً فيما يذكره عن نفسه، فقد استشهد بالفرسان والأبطال وبكلّ شيء مخلص يمكن أن يُصدقّنا القول، فقبلت عبلة كلّ ما قاله وآمنت به، وكذلك فعلنا نحن؛ وبذلك أصبح عنترة شخصية حية لم يكتنفها الموت لتصبح أثراً بعد عين، بل هو رجل نراه كل يوم ونشاهده في كل كلمة من الكلمات التي خلّفها وراءه، وقد أصبح شخصية متكاملة

الصورة والأحاسيس يعيش منذ جاهليّته حتى الآن، فهو من الشخصيّات الأدبيّة الخالدة.

كانت ملاقاته للأبطال من المشاهد المُثيرة التي وردت في المعلّقة، واستطاع أن يجسّم هؤلاء الفرسان ويحدّد لنا صُوَرهم وتاريخهم البطولي وملبسهم المرموق وخصالهم القويّة وأريحيّتهم الفريدة. ثم يُلاقيهم ويُصادمهم مصادمة الندّ للندّ، ولا يكفيه أن يكون ذلك الفارس عريقاً في تاريخه الحربي، بل يصفه كذلك بأنه عريقٌ في الجود؛ إذ أن له باعاً طويلاً في الكرم تعرفها له الرياح الباردة، وكأنما يريد منّا عنترة أن نبكي على الأبطال الذين يقتلهم لأنهم أبطال بالفعل يتحلّون بخصال ممتازة عديدة، فَهُم بالإضافة إلى كرمهم وشجاعتهم لهم مكانتهم في المجتمع القبلي، لأنهم طالما حموا الحمى. وتتملّكنا الحسرة ـ بل ربما تكاد أعيننا تفيض دمعاً ـ حين تقفر الأرض منهم ونشعر بأن مأساة أصابت تلك القبيلة من جرّاء إقدام عنترة على قتل الأبطال دون غيرهم من المحاربين.

لكن عنترة كان في موضع فخر حين أنشأ قصيدته، وكان أمام رجل يتحدّاه في شاعريّته، والشاعرية لا تنتج إلا عن تجربة، والتجربة الصادقة تولّد المشاعر الحيّة. ولهذا، فإن عنترة أبان عمّا في مكنون

نفسه ببراعة وحيويّة أذهلت متحدِّيه العبسي، وأعجبت كل قارىء لمعلّقته.

إنّ علاقة عنترة بالحرب أو بالقتل الجماعي علاقة أوْجَبتها الضرورة؛ لأن الافتخار بالأخوال لم يكن من الممكن لمثله بالرغم من أنه حاول ذلك مراراً وتكراراً، ولكن كيف يفخر بنسب وأُمّه زبيبة لا يعرف العرب لها أُمًّا أو عمًّا أو خالاً؟ إنها تفقد العصبية القبلية في عصر كانت العصبية القبلية فيه هي كل شيء. وليس لابن أمَة سوداء من سبيل في عيشٍ كريم، فكان لا بدّ لعنترة من أن يقتل الفرسان دفاعاً عن قبيلته، ودليلاً على انتمائه لتلك القبيلة التي لولا دفاعه عنها لما بلغت تلك الدرجة من السموّ والتقدير الذي بلغته بسبب كفاحه ومدافعته عنها.

بالغ عنترة في حبِّه للقبيلة وحبِّه للحرب وحبّه لعبلة، ولا يعرف قارىء الأدب أين كان حبّه أكثر. بَيْد أنه كما مرّ بنا في كلّ حبّ، وجدناه فنّاناً بارعاً في الطريقة التي باح بها عن هذا الحب. وفي حبِّه لعبلة أخذ يتصيّد مواقع الجمال فيها ليقضي بعض الوقت في الاستمتاع به، ويُشركنا معه في تلك المتعة. ونرى كيف أن حبّه لعبلة كان قويًا عاطراً ينفح بالإخلاص ويعبق بالإجلال، ونجد أنه لم يكتفِ بحاسّة النظر في حديثه

عن عبلة، بل إنه أشرك أنفه في ذلك أيضاً، فجعل عطرها الفوّاح يملأ الهواء بعبيره الزكيّ. ومضى عنترة في هذا العطر طويلاً وأنشأ عدّة أبيات ليصف لنا هذا العبير، فكان وصفاً غنيًّا بالجمال وبالعطر:

وكأن فأرةَ تاجرٍ بقسيمة
سبَقَتْ عوارِضَها إليكِ من الفم
أو روضةً أُنُفاً تضمن نَبْتَها
غيثٌ قليل الدِّمن ليس بِمَعْلَم
جادت عليه كلُّ عينٍ ثَرَّةٍ
فتركْنَ كلَّ قرارةٍ كالدِّرْهَم
سَحّاً وتَسْكاباً فكلَّ عشيةٍ
يجري عليها الماءُ لم يَتَصَرَّم

والعطر الذي يتضوّع من عبلة عطر معقّد العبير؛ لأنه ليس من زهرة واحدة، أو وردة واحدة، ولكنه صِيغَ من عدَّة زهور ووُرود نبتَتْ في روضة من أيْنَع الرياض، ووكفت السماء على هذه الروضة بعد أن ساقت إليها السُّحُب من كل جانب، وأنزلت عليها الغيث في الأُمسيات حتى لا تجفّ مياهها سريعاً من حرارة الشمس، بل تبقى طيلة الليل وبداية النهار لتروي تلك الأرض التي تجري عليها المياه، كأنها أنهار فتسقي

obeikandi.com

كل بقعةٍ منها، بل وتبقى تلك الغدران من الأمطار في الأرض تتلألأ في العشية كأنها دراهم تنثر على العرائس.

إنّ ذهن عنترة عندما استنشق عبير عبلة انصرف إلى خيالات بعيدة، وأخذ يتبع ويتقصّى منابع هذا العطر افتتاناً به، وتعجّباً منه. ومضى في تقصّيه هذا بعض الوقت حتى كدنا ننسى أوّل الموضوع الذي كنّا فيه. ونجد بعد أن كنّا نستنشق عطر عبلة طفقنا نجوب في هذه الروضة الفَيْحاء النَّضِرة اليانعة بما فيها من صور جميلة وأزهار عطرة ومياه ثرة، وهي وإن أبعدتنا بعض الشيء عن عطر عبلة، إلا أنها في الواقع سياحة خيال كثيراً ما تحدث للمرء حين يرى شيئاً ثم لا يلبث خياله أن ينصرف إلى أشياء ذات صلة بهذا الشيء حتى تصل إلى غايات بعيدة لا صِلة لها بأصل الموضوع، ويعجب عندها المتخيّل من الأسفار التي سبح فيها الخيال حتى نَسِيَ أوّل شيءٍ رآه.

بل إن ذهن عنترة السياحي يُمعن في سياحته في تلك الرّوضة التي بعد أن رأى فيها الزهور العَطِرة وجدها عامرة بالذباب، ولكنه ليس ذباباً كالذي نعرفه؛ بل ذباب خاص ميّزته شاعرية عنترة بنوعٍ من الجمال الموسيقي:

وخلا الذُّباب بها فليس ببارحِ
غرد كفعل الشارب المترنّم
هزجاً يحكّ ذراعه بذراعه
فِعْلَ المكِبِّ على الزّناد الأجذم

فهو قد وجد الذباب بهذه الروضة التي بَعُدت عن متناول الإنس مرتعاً خصباً ليُقيم فيه أفراحه ويغنّي فيها، وقد تملّكته النشوة كما يغرد الثمل. ثم ما يلبث هذا الذباب أن يمرح في حياته العادية، وهو يحكّ ذراعاً بذراعٍ مما يجعل ذهن عنترة ينصرف إلى ذلك الرجل القصير المُكبّ على الزّناد الذي يريد أن يوقد النار، وهكذا نجد الصور تتوالى في ذهن عنترة، وهو ينعم باستنشاق عبير عبلة العَطِر.

ليس عنترة هو الوحيد من الشعراء الذي استلهم من الذباب رَوْعة الموسيقى، بل إن هناك أحد شعراء الإنجليز الذي حذا حذوه، وهو الشاعر الرومانسي جون كيتس (١٧٩٥ ـ ١٨٢١)، وذلك في قصيدته «تحية إلى العندليب»؛ إذ أنه من الشعراء الذين استوحوا جمالاً موسيقيًا من طنين الذباب.

والشاعر الإنجليزي كيتس لم يكن بالطبع جاهليًا، فهو قد عاش في القرن التاسع عشر حيث مات في

رَيْعان شبابه. ولا يهمّنا موته الآن، ولكن الذي يهمّنا هو أنه تحدّث عن الذباب وعن النّغم المُسكر الذي يُخدثه ترنيم الذباب، وهو كعنترة يفصح عن الآثار النفسية التي يحدثها ذلك الطنين في المستمع، ويصوّر المشاعر الإنسانية التي تطغى على المرء وتؤثّر في الأحاسيس.

قال كيتس في قصيدته «تحية إلى العندليب»:

«إنني لا أستطيع أن أرى أي نوع من الزهور

تحت أقدامي، ولا أي عطر حالمٍ يحلّق في الأغصان

ولكن في الظلام الكثيف الذي يحيط بالمكان

ليس هناك سوى أن يتخيّل المرء أي نوع من الشذى السرّي

ينتثر من الخضرة والأعشاب وأشجار الفواكه

والزهور البيضاء وورود المروج

ومن البنفسج الذي يذوي سريعاً

ويُدْفن تحت أوراق الشجر

ومن تلك الزهور التي تتفتح في منتصف مايو لتصبح

أطفاله الكبار

وهي مخضلة بخمر نقي نديّ

تغدو المروج وقد تخلّلت مراتعها ترنيمات الذباب

في أمسيات الصيف».

وكأنما الروضة التي رآها عنترة في القرن السادس للميلاد هي نفس الروضة التي نَعِمَ بها كيتس في القرن التاسع عشر للميلاد، وهذا يعني أن العاطفة الجاهليّة عند عنترة هي نفس العاطفة الرومانسية عند جون كيتس. وكما هو واضح، فإن كِلاَ الشاعرين رأى الروضة في الصيف، وشاهد ما فيها من زهرٍ يتضوّع، وخضرة تنفث العطور، وذباب يُسكر الآذان. وفي الحالَيْن أيضاً خمرٌ أو نفحات خمر نديّة لا بدّ أن يكون الذباب قد شرب منها حتى ثمل وأصبح يترنّم بصوت أهاجَتْه النشوة.